

## رابعاً : خطاب الشعب (خطاب الشكوى والتّمرّد)

كثرت في الفكر المصري القديم وخاصة في عصور الاضطراب وفترات الانتقال صور خطاب الشكوى الشعبية من سوء الأوضاع وتقلب الأحوال والآلام والتعاسة التي يعانها عامة الشعب . وعرف هذا النوع من الخطاب لدى علماء التاريخ والآثار بأدب الشكوى . والأمثلة عليه كثيرة فهناك شكاوى الفلاح أو القروي الفصيح وشكاوى اليانس ، ونفرتي ، وخع خبر رع سنّب وغيرها (٩٢) .

وإن كانت شكاوى القروي الفصيح (٩٣) قد لاقّت اهتماماً واسعاً من كل دارسى الفكر والأدب والتاريخ المصري القديم نظراً لأنها تعبر خير تعبير عن الأوضاع المصرية في تلك العصر الذى كتبت فيه ، وتعكس صور المعاناة التي عاناها الناس في تلك الفترة ومدى الصراع الذى اعتل في نفوس المصريين بين الحفاظ على الهوية الحضارية المتمثلة في تفديس الماعت (الحق والعدل) وبين سيادة الاضطراب والفوضى واستغلال السلطة من قبل بعض الولاة وحكام الأقاليم ومساعدتهم .

---

كما أن هذا النص وأمثاله من خطاب الشكوى فى الفكر  
المصرى يعبر فى ابعادى عن جوانب لا يكاد الدارسون يهتمون  
بها رغم أنها جوانب ذات أهمية قصوى بالنسبة لمرعنة الأحكام  
المطلقة التى اعدنا أن نطلعها على الحضارة المصرية وبطامها  
الساسى .

ومن هذه الجوانب :

أولا : أن هذه الشكاوى وخاصة شكوى الفروى الفصح نوصح بما  
لا بدع محالا للسك أن المصرى العديم لم يكن مجرد برس فى  
اله الدوله أو عندا عند الفروع بل كان فردا له من الحقوق  
مثل ما عليه من الواجب . وأن حقوقه كانت معرفة جيدا  
ومحمية بسوجب القانن والحق الذى امن به الجمع حكاما  
ومحكومين والممثل فى تلك الكلمه الجامعه (الماعت) .

ثانيا : أن هذه الشكاوى نوصح بجلاء نام أن هناك من كان بسسمع  
إلنها من الحكام ، وهناك من كان يحق فيها ويرفع الظلم عن  
كاهل المظلوم . بل إن شكوى الفروى الفصيح وفضنها بيبين

أن الحاكم قد اقتص من الظالم بأن أخذ كل ما كان يملكه وأعطاه لذلك الفروى الفصيح ولم بكتف بأن رد إليه ما سرق منه . وهذا يعنى أنه قد عوضه عما أصابه من ألم نتيجة هذا الإعداء الصراح من هذا الموظف المنكبر المتغرس على حق هذا الإنسان العادى المسنضعف . فالعدل إين لم يكن مجرد اعتقاد توضحه الأقوال المحفوظة النى يرددها الكتاب وبتسدىق بها الملك ، بل كان حذيفة وافعه يحرص على إقامته الجميع حكاما ومحكومين .

**ثالثا :** إن حق النغد والشكوى كان مكفولا للمواطن فى مصر القديمة سواء فى عصور الاستقرار أو فى عصور الانحلال والانهيار؛ فالفارئ لنصائح بتاح حوتب إلى ابنه وهى تعود إلى النصف الثانى من الألف الثالثة قبل الميلاد (أى إلى عصر الدولة القديمة) يجد أن بتاح يطالب ابنه بأن يحسن الاستماع إلى شكوى المظلوم وأن يتركه يتحدث حتى يفرغ تماما من شكواه؛ فهذا هو يقول له " إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى فكن سفيحا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسئ معاملته إلى أن

---

بغسل بطنه ، وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله . وأن المنظلم يحب كثيراً أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهي مما جاء من أجله . . وأن مجلساً حسناً يسر القلب " (١٤) .

أما الفرائ لتكأوى للعروى العصيح وهى المثل على الشكوى فى عصر الانتقال هيجد أن جرأته قد بلغت حدأ كبيراً ، وأن شكواها قد سجلت ووصلت إلى الملك . وتحققت له العدالة التى كان يتسدها بالفعل .

إذا لقد كان المصرى القديم قادراً على الكلام والنقد أى أنه كان حرأ فى التعبير عما يجول بخاطره رغم ما قد يترتب على ذلك من متاعب قد يتعرض لها ولم يكن إنساناً سلبياً أو مقهوراً كما يشاع عنه أحياناً .

رابعاً : إن النظام السياسى المصرى قد تأسس على نوع من أنواع العفد الاجتماعى الذى عبرت عنه فكرة " الماعت " ؛ فعلى الرغم من الأصل الإلهى الذى يؤمن به الإنسان المصرى القديم للماعت وكذلك للملك - الفرعون الإله ، إلا أن ذلك لم

يمنع من وجود صيغة ما من صيغ العقد الاجتماعى فى  
مرحلة ما من مراحل التطور السياسى بين طرفين (الحاكم  
والمحكوم) . وهذه الصيغة قد اكتسبت قداستها فى واقع  
الأمر من ارتباط الأخلاق والدين بالسياسة، ذلك الارتباط  
الذى يمثل حجر الزاوية فى فهم أى جانب من جوانب الحياة  
اليومية فى مصر القديمة .

إن هذه الصيغة التى تبلورت فى فكرة الماعت كانت الأساس  
الذى تحقق من خلاله الاستقرار فى الدولة المصرية ؛ فالحاكم  
يكتسب احترامه وقداسته فى نفس المحكومين من حرصه على تمثيل  
الماعت والحفاظ عليه . والمحكوم ينفذ الأوامر ويؤدى واجباته فى  
ظل قوانين ونظم تضمن له حقوقه . وعلى ضوء هذا تولدت العدالة  
الاجتماعية واستقر مفهومها فى المجتمع رغم ما يبدو على السطح  
من سلطات واسعة أعطيت للملك بحيث يبدو منها وكأنه الحاكم بأمره  
أو الحاكم المستبد !

ولعل تحليل مضمون أحد نصوص هذه الشكاوى ، وليكن نص  
شكاوى القروى الفصيح<sup>(٩٥)</sup> ، يكشف لنا عن هذه الجوانب المهملة

الظفر إليها في الحصاره المصربه القديمة وفي نظامها السناسى ،  
وبكتشف أمامنا في نفس الوقت صورته البطام السناسى المصبرى  
ومعى العدالة التى كان يطلبها الشعب من حكامه .

إن قصة العروى الفصيح كتبها أحد أبناء العصر الإناسى . وقد  
كتبنا لنزوى حدنا وقع قبل ذلك نفليل . ونعود أحداثها إلى عصر الملك "  
ب-كاو-رع " أحد ملوك أناسبا فى الأسرة العاشرة (٩٦) .

وبالطبع ننغى أن نمز بين رواية القصة ، وبين شكاوى  
العروى الفصيح ؛ فالأحيرة فالها العروى شفاهه وسحلها أحد الكتاب  
الملكيس . أما القصة التى سبقت الشكاوى النسع للعروى الفصيح فهى  
من صباغته أحد الأدباء الذين راقهم أسلوب العروى كما راق للملك  
فروى وفائعها كاملة وأورد الشكاوى نصها كما سجلت فى السجلات  
الملكية .

أما المعدمة التى تحكى قصة الشكاوى فننلخص فى أن قروى-  
بدعى " خون أنبو " (٩٧) أحس أن مخارن الغلال فى منزله كادت  
تفرغ مما فيها ، فاستأنن زوجته فى السفر إلى العاصمة أناسبي

للحصول على المزبد من الطعام والغلة التي تكسب أولاده ، وطلب منها أن تعد له ما يكفيه من راد للطريق وأن نحتفظ لنفسها ولأولاد بالشئ العليل الذي يكفيهم حتى يعود إليهم .

وخرج هذا القروى من قريته " حقل الملح " بالقرب من وادى النظرون يحمل على حميره بعض السلع التي اشتهرت بها فريته والمنطقة التي نحيط بها . وكانت هذه السلع متنوعة ففيها النباتات والبذور والأحجار المتنوعة وبعض الأعشاب الطبية والطيور والعمود . وكان على خون أبو أن يخترق في طريقه إلى العاصمة ضيقة " رنسى مرو " مدبر قصر الفرعون ، وكان أحد عماله وبدعى " ججوتى نخت " فاسدا طماعا . فلما رأى هذا الأخير حمير خون أبو بمنظرها الخلاب وما عليها من سلع ثمينة متنوعة طمع فيها . ففكر في حيلة للاستيلاء عليها بشكل يبدو قانونيا أو بعبارة أخرى بطريقة تخدع القروى ويستسلم لها . وقد أمر خادمه بأن يسرع لإحضار بعض قطع من قماش الكتان وأسرع فمدها على الطريق الضيق بين ماء النرعة وحقل الفمح . وفوجئ القروى حين وصل إلى هذه النقطة من الطريق بمن يقول له : ابتعد عن القماش

المنشور على الطريق فاحتر القروى أين يتجه إذن ! إن جانبى الطريق هما التربة وحقل القمح ولم يكن أمامه إلا أن يميل بحميره فيسير على الجانب الذى به القمح فهذا هو الطريق الصحيح . فصاح فيه ججوتى نخت : هل سيصبح حقل القمح طريقا لك ؟ فلم يكن أمام القروى إلا أن يقول له : " طريقى هو الطريق الصحيح . ولكن حيث إن الجسر مرتفع والطريق مغطى بالشعير وأنت أيضا تشغل الطريق بملابسك، ألا يمكنك أن تسمح لنا بالمرور على هذا الطريق؟" <sup>(٩٨)</sup> وبالطبع فقد انتهب الحمار الفرصة التى انشغل فيها صاحبه بالكلام وملا فمه بحزمة من القمح وحينئذ كشف ججوتى نخت عن مؤامرتة الدنيئة للاستيلاء على حمير القروى بحجة أنه أكل قمحه . وحاول القروى مقاومته قائلا : " هل تستولى على حمارى لأنه ملا فمه بحزمة شعير ! ولكننى أعرف سيد هذه الأملاك ، فهى ملك رئيس الحجاب " رنسى بن ميرو " فهو الذى ذاعت شهرته بأنه يعاقب كل لص فى هذه البلاد ! فهل يتفق أن أسرق فوق أرضه <sup>(٩٩)</sup> .

ولكن كلام القروى نزل كالصاعقة على ججوتى نخت ، فاعتدى على خون أنبو وضربه بعصا على جميع أجزاء جسده ،

ولما بكى القروى بكاء حارا نظرا لما تعرض له من ظلم ومعاناة ،  
نهره جحوتى وطلب إليه أن يصمت لأنه قريب ، من مقر " سيد  
الصمت " أى " الإله أوزوريس " (١٠٠) .

وحينئذ بدأت الشكوى وبدأ التمرد الذى أعلنه أنبو على ما  
يتعرض له من ظلم حين قال متعجبا : " واعجبا ، أتضربنى وتسرق  
ممتلكاتى وتريد أن تغرس الشكوى فى فمى ! أيا " سيد الصمت " رد  
لى ما أمتلكه حتى أتوقف عن الصراخ فأسبب لك الفزع ! " (١٠١) .

إن لقد رفض القروى الإذعان والصمت لأنه أحس بالظلم  
الشديد الذى وقع عليه والذى لا يجدى معه الصمت . فلا بد من  
الشكوى والكلام حتى يعود الحق إلى صاحبه ، فالصمت ليس  
الفضيلة المناسبة هنا ، بل الشكوى والمطالبة برفع الظلم هى  
التي ينبغى أن يتحلى بها القروى حتى يعود إليه حقه .

وبالفعل فقد اتجه القروى إلى الجنوب ليلتقى رئيس الحجاب "  
رنسى بن ميرو " بعد أن ظل عشرة أيام كاملة يتوسل إلى جحوتى  
نخت ليعيد إليه حقه . والطريف أن القروى عندما صادف رنسى بن

ميرو وهو بعادر منزله متجها إلى سفينته الرسمية بإدره فائلا : " وآه! ليتنى أسعد قلبك بشأن هذه المشكلة التي حدثت لى " (١٠٢) .

قالفروى الفصبح يعتقد أنه حينما سبعرض مشكانه على ممىل الحاكم سيسعد قلبه لأنه سيعطبه فرصة ثمبنة لبحقق العدالة ، ويفنص من الظالم ويرد الحق إلى المظلوم . وفى هذا دلالة قوية على أن تحقيق العدالة وفرص النظام كان درة العفد الأجماعى - السباسى بين النظام الملكى الحاكم وبين المواطنين فى مصر القديمة .

إن المضمون الرئيسى الذى نكشف عنه الشكاوى التسع للفروى هو ذلك الاعتراف الذى آمن به الحاكم والمحكوم على السواء ، فالمحكوم يطلبه من الحاكم ، و الحاكم يسعد قلبه أن يلبى وأن ينصر المظلوم ويعاقب الظالم . إن مضمون الخطاب بكتشف عن حال العامة فى ذلك الزمان ومعنفداتهم حول الحكم والعدالة وضرورة فرص النظام بأخذ حق المظلوم من الظالم . . الح وهو خطاب ينسق ناماما مع ما رأيناه من قبل فى خطاب السلطة حيث أن كليهما يركز على نفس الفهم السياسية - الأخلاقية التى ينبغى أن نسود المجتمع بفصل رجاحة عمل الحاكم ونشر مظلمته الإلهية العادلة على مواطنيه .

ويبدو ذلك واضحا أمامنا حينما نبدأ فى قراءة نص الشكاوى التسعة ؟ فمذ الشكاوى الأولى التى قدمت لرئيس الحجاب يخاطبه فيها القروى باسم العدالة وطلب الإنصاف . وهو يستهل هذه الشكاوى بعبارات بليغة بلغت حدا بعيدا من الإعجاز فى اختصار وتكثيف المعانى التى تعبر عن الحكمة الموروثة حول قداسة العدالة ودورها فى تحقيق الأمان للمواطن والخلود والشهرة الأبدية للحاكم أو من يمثله فى السلطة .

ولنتأمل معا فى النص التالى كيف يمتزج احترام القروى الشديد لرئيس الحجاب الذى يمثل السلطة ، بمطالبته التى لا تهتر بضرورة تطبيق العدالة لما يمثله ذلك من خير وتقدم للجميع . يقول القروى مخاطبا " رنسى بن ميرو فى شكواه الأولى : " إذا نزلت إلى بحيرة العدالة ، من المؤكد أنك ستبحر فيها مع ربح مواتية . ولن يقطع شراعك ، ولن تتقدم سفينتك ببطء ، ولن يصيب ساريتك ضرر ، ولن تنكسر عوارض السوارى . . ولن تجرفك المياه ولن تعانى من مشاق النهر ولن تشاهد وجوها مرعبة . بيد أن الأسماك ستجبه إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة لأنك أب لليتيم

وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ، ومئزر لمن فقد أمه . . . أيها المرشد الخالي من كل حسد ، الرجل العظيم المجرى من الشراسة، الذى يقضى على الكذب ويوقظ الحقيقة تعال على صوت من يتحدث إليه وأجهز على الشر . . . أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذى يمتدحه الذين يمدحون. لطرده ضيفى ، لاحظ أنى أروح بحب وطأة حزنى .  
لقد وهنت بسببه<sup>(١٠٢)</sup> .

وقد استمع كبير الحجاب إلى الشكوى وسرعان ما نقلها إلى جلالة الملك " نب - كاو - رع " فسارع الملك بدوره نتيجة إعجابه ببلاغة هذا القروى وحبه الشديد لتطبيق العدالة ، سارع بإصدار توجيهاته إلى كبير الحجاب بأن يلزم الصمت حتى يستمر القروى ببلاغته المعهودة فى شكواه ويستمر كبير الحجاب فى إبلاغ الملك بها كتابة حتى يمكنه الاستمتاع ببلاغة القروى وفصاحته فى التعبير عن هذه المضامين الرائعة لمفهوم العدالة ودور السلطة فى تخفيفها من جانب ، ومن جانب آخر فإنه ربما أراد من وراء ذلك أن يحس بنبض الشعب ويعرف ما يعانى به الناس فى ظل حكمه من خلال شكواى هذا القروى البسيط لعل فيها ما يتناقض مع ما ينقل إليه من تقارير رسمية ينقلها المسئولون والحجاب والوزير . وفى اعتقادنا أن

اشتياق الملك إلى معرفة واقع الحال الذى يعيشه عامة الناس كان العامل المباشر وراء طلبه أن يستمر الشاكي فى تقديم شكواه على أن يبلغ هو بها مكتوبة . ولعل ما يؤكد صحة اعتقادنا هذا أن الملك كان قد اقتنع منذ اللحظة الأولى التى استمع فيها إلى الشكوى الأولى للقروى بعدالة قضيته . وقد عبر عن ذلك قوله لرنسى بن ميرو : " أمن سبل العيش لزوجة القروى وأولاده ، وله شخصيا ، لأنه حينما يشد أحد هؤلاء الفلاحين للرحال فما ذلك إلا لأن منزله خلو حتى الأرض " (١٠٤) .

لقد برهن الملك بذلك على اهتمامه الشديد بأحوال رعاياه ومعرفته بأدق تفاصيل حياتهم وأنه إنما يريد معرفة المزيد منها من خلال الاستماع لشكاوى هذا القروى لصراحته الشديدة وقدرته على التعبير الفصيح عما يجول بخاطره .

لقد أصدر الملك توجيهاته فى ذات الوقت بأن يتولى رنسى تدبير حياة أسرة القروى بإرسال المعونات الغذائية إليهم دون أن يعلم القروى شيئا عن ذلك ، وأن يوفر له أيضا الغذاء المناسب والإقامة المناسبة بدون أن يعرف أن هذا الطعام من كبير الحجاب حتى لا

---

يتأثر بذلك فى بث شكواه ، وحتى يستمر فى عرضها مع إحساسه  
بالظلم وعدم الاهتمام !

وقد بدأ أثر ذلك بوضوح فى الشكاوى التالية للقروى حيث بدأ  
فى التعبير عن إحساسه بالظلم من عدم الاسماع إليه وعدم الإسراع  
من قبل رئيس الحجاب فى تطبيق العدالة ؛ وبعد أن كان بمدحه  
مطالباً إياه بتطبيق العدالة بصورة إيجابية تخلص من التحريج والنقد ،  
بدأ يمزج مدحه إياه بالغضب منه لعدم الإسراع فى تطبيق العدالة ،  
وأخذ يوضح له النتائج السيئة المترتبة على عدم تطبيق العدالة ؛ لقد  
انتقل من المدح إلى النقد ، ومن تفریط للعادل والعدالة ، إلى تجريح  
للسلطة لعدم تطبيقها العدالة ، وإلى تعديد لصور العدالة الضائعة على  
يد من يجب عليهم أن يكونوا رسلاً للعدالة ومحافظين عليها !  
وهاهو يقول معبراً عن ذلك بعبارته البليغة الواضحة :

" أليس من الأمور السيئة أن يميل الميزان ، وأن تتحرف  
وزنة الرصاص ، وأن يصبح الرجل الدقيق العادل شخصاً مشوشاً ؟!  
انظر ، إن الحقيقة والعدالة قد طرنتا من مكانها فى ذلك  
والشخصيات البارزة ترتكب الإثم ، واستقامة القول طرحت جانباً ،

والقصة يسرقون ، ومن كان عليه أن بمسك من يخادع بركب  
المخالفات التي من واجبه الوقوف ضدها . من كان عليه أن يمنح  
النسمة هو ذاته محروم منها ، ومن كان عليه أن ينعش ، يجعل القوم  
يلهثون . ومن كان عليه أن يقسم قسمة عادلة هو لص . ومن كان  
عليه أن يطرد الحاجة هو الذى يتسبب فى وجودها والمدينة محاصرة  
بأمواجها . ومن كان عليه أن يطرد الأفعال السيئة هو الذى يرتكب  
الشر " (١٠٥) .

والجدير بالملاحظة أنه حينما تدخل رنسى بن ميرو رئيس  
الحجاب وجه كلاما مستقرا لهذا القروى بقوله : " هل ما يجثم على  
قلبك هو بالنسبة لك أهم من المجازفة بأن يمسك بك أحد خدامى ؟ "  
(١٠٦) ، فإن القروى يصر على أن يواصل كلامه كاشفا عن صور  
أكثر للفساد الذى يعانى منه الناس دون أن يعبأ بهذا التهديد حيث  
بضيف قائلا : " إن من بكبل أكوام الحبوب بغش لصالحه ، ومن  
يملاً مخزن غلال الغير لا يكيل بالقسطاس أملاك هذا الأخير ، ومن  
كان عليه أن يشرف على تطبيق القوانين يأمر بالسرقه ! من إذن  
سيعاقب الأعمال الشائنة إن كان الذى عليه أن يدرأ الظلم يرتكب هو

---

ذاته المخالفات . . . ما عساك تقول بشأنك ؟ العقاب لا يدوم سوى لحظة ولكن السر يدوم طويلا . . . " (١٠٧) .

وقد انتقل القروى فى شكواه من تعديد صور الفساد وعدم تطبيق العدالة خاصة لدى من ينبغى عليهم تطبيقها ، إلى النقد المباشر لرئسى بن ميرو نفسه . ولنتأمل فى النص التالى مدى جرأة القروى الشديدة فى نقد هذا السيد المتغترس الذى لم بأمر برد الحق إلى صاحبه . يقول القروى مضيغا إلى ما سبق وموجها كلامه إلى رئسى بن ميرو : " إنك رجل قوى وتديد البأس ، ساعدك متفوق ولكن قلبك طماع . وتمر الرحمة من فوقك . . . من عنده ممتلكات عليه أن يكون حلما . السرقة أمر طبيعى بالنسبة لمن لا يملك شيئا ، وأيضا سلب الممتلكات بالنسبة لسجين . وهو أمر يستوجب العقاب لمن لا ينقصه شيء . ولكن لا ينبغى أن نأخذ الفير على ذلك فهو يبحث فقط عما يسد رمقه . " كن إذن ماوى وليكن شاطنك سالما لأن المدينة محاطة الآن بالتماسيح . وليكن لسانك صارما ولا تضل فقد يكون جزء من جسد الإنسان ثعبانا له . لا تنفوه بالكذب . . . " (١٠٨) وهو يستطرد فى الشكوى الثالثة مؤكدا نفس المعانى : " عاقب

للص. ساعد الرجل المسكين لا تصبح الموجة التي تقف في وجه من يتوسل . احذر حفيظة أن الأبدية بعترب ولتكن أمنيتك أن تحيا طويلا عملا بهذه الحكمة " إقامة العدل هي نسمة فتحة الأنف " عاقب من يستحق العقاب . . . إن توازن البلاد قائم على تحقيق العدالة ، لا تنفوه بالكذب ، لأنك شخص له شأنه . . . لا تنفوه بالكذب لأن عليك أن تكون ميزانا ولا نكن مشوشا لأن عليك أن تلتزم بالاسقامة . . . على لسانك أن يكون نقالة الميزان ، وقلبك هو وزنه ، وسفناك هما نراعه ، إذا أشحت بوجهك عن الرجل العنيف فمن إذن سيعاقب الشر ؟ " (١٠٩) .

ويبدو أن رنسى بن ميرو قد ضاق من جراءة الفلاح القروى أو ربما أراد استفزازه أكثر وأكثر فأمر اثنين من حراسه أن ينهضوا حاملين سوطين وأوسعاه ضربا في كل أجزاء جسده . فما كان من القروى إلا أن ازداد جراءة في نفذه قائلا له : " ما فنى بن ميرو فى ضلال ، لا زال وجهه بتعامى عما برى ، وأصم لما يسمع ، بل نساء لما تذكره به " (١١٠) . وأخذ فى توبيخه بتشبيهات تصب كلها فى إطار ما بترتب على غياب العدالة حينما يتجسد فى شخص يمثل

السلطة ، فحينئذ يكون هذا الشخص " أشبه بمدينة بلا حاكم ، أشبه بفرقة بلا قائد ، أشبه بسفينة بلا ربان ، أشبه بجماعة من الناس بلا مرشد ، أشبه بشرطى يسرق ، بحاكم يسلب ، بمدير منطفة إدارية عليه أن يعاقب أعمال السلب وصار نموذجا لمن يعمل الشر " (١١١)

لقد شخص القروى فى هذا النص اللبديع أهمية العدالة فى الدولة ، وأهمية أن يكون ممثل السلطة التنفيذية عادلا وحريصا على تطبيق العدالة ؛ فالعدل أساس النظام وبدونه تتقلب الأمور إلى فوضى ويقوم كل واحد باستغلال وظيفته فى عكس ما ينبغى أن يقوم به من أعمال لخدمة العدالة والنظام .

وقد واصل القروى فى شكاواه النالية إفراغ قلبه من كل ما به من ألم وإحساس بالظلم وقدم للمسئول كل ما يمكنه تقديمه من صور فقرة لغياب العدالة إذا لم تجد من راعيها الإنصاف والأمر بالتفويض والتطبيق على كل ظالم أو سارق . ولما لم يجد أذنا صاغية للتحقيق فى شكاواه أو فى الاستماع إلى كلامه عن الظلم الذى وقع عليه بدأ يعود إلى لهجة الاستعطاف مرة أخرى ، وبدأ يعبر فى خطابه عن المبادئ العامة للعدالة التى ينبغى أن يتحلى بها المسئول عن تطبيق

العدالة ، وبالجزء الطيب والسعادة الأبدية التي ستكون من نصيبه إذا التزم جانب العدل وحققه على ظهر الأرض . إن هذه العمومية فى الخطاب والشمولية فى تقدير العواقب الأخروية لتطبيق العدالة فى الحياة الدنيا نجدها فى ختام الشكوى الثامنة حيث يقول القروى لرئيس الحجاب :

" أقم العدل من أجل سيد العدالة الذى يقيم عدالته الخاصة . إنك أنت القلم وقرطاس البردى ولوحة الكتابة ، أنت تحوت (١١٢) فتجنب اقتراف الشر ، الخير طيب عندما يكون سعيدا ، العدالة تدوم إلى الأبد . إنها تهبط إلى الجبانة مع من يقيمها عندما يدفن ، تحت الأرض معه ولكن لن يمحي اسمه من على الأرض . سوف تكوم نكراه بسبب ما قدمه من خير . تلك هى القاعدة الخاصة بكلام الإله " (١١٣) . وفى ختام الشكوى التاسعة والأخيرة نجد أيضا نفس هذه النظرة الشمولية لتقدير قيمة العدالة حينما يقول القروى الفصيح : " لا وجود للبارحة بالنسبة لإنسان لا عمل له ، ولا صديق للإنسان الذى يصم أذنيه عن العدالة ، ولا أيام سعيدة هناك للإنسان الشره " (١١٤) .

---

لقد جمع القروى فى هذا الحسام البليغ الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة للإنسان غير العادل فى عبارة واحدة ؛ فلا ماضى لمن لا يعمل بموجب العدالة حيث لن يذكر له أحد أى أفعال طيبة ماضية ولا صديق له فى حاضره لأن الصداقة الحق ينبغى أن تكون بين أناس عادلين يحرصون على العدالة مع النفس ومع الغير ، وكذلك فلا مستقبل لمثل هذا الإنسان الذى فقد القدرة على الفعل العادل فى الماضى والحاضر ، هذا إذا قيس المستقبل بمعيار الماضى والحاضر ، حيث إن السعادة فى مستقبل الأيام تقاس على ما قدمه الإنسان فى ماضيه وحاضره ، ولعل القروى يقصد هنا ليس السعادة النبوية ، بل أيضا السعادة الأخروية . فالشرير لن يعيش حياة سعيدة حقيقية لا فى الدنيا ولا فى العالم الآخر فهو مكروه من الناس فى دنياه ، وسيلقى العقاب الصارم فى حياته الأخرى !

وقد توقف يان أسمان كثيرا أمام هذا النص البليغ من شكاوى القروى الفصيح ، وأعاد تحليله ليقدم من خلاله النظرية المصربة القديمة الكاملة للماعت . إن النص يقول كما ترجمه أسمان وكما

عبرت عنه الترجمة العربية " لا أمس للبليد، لا صديق لمن لا ينصت  
للماعت ، لا أعباد للجشع " (١١٥) .

وينظر آسمان إليه على أنه تلخيص بليغ للعناصر المضادة  
للماعت ، وهي ثلاثة " الجمود " و " فقدان الحس " و " الجشع "  
والبلادة أو الجمود وهي العيب الرئيسى الذى يأخذه القروى على  
رئيس الحجاب . . والقضية المطروحة فى الشكاوى إذا تجاوزنا عن  
المقدمة هى قضية عدم السعى والتجاهل الذى يقوم به المسئول تجاه  
الشكاوى وهى التماس أو فعل يقوم به القروى . وبالطبع فلا بد من  
وجود سلسلة متشابكة من الأفعال ، ففعل الشكاوى يقتضى من الرئيس  
التحقيق فيه وعدم تجاهله لكن الجمود والتجاهل الذى حدث منه قطع  
الصلة بين الفعل ونتائجه ، أى قطع الصلة بين الشكاوى والنتائج التى  
كان ينبغى أن تترتب عليها ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى فقدان الحس  
الاجتماعى ومن ثم إلى تفكك المجتمع . ولقد كان المجتمع المصرى -  
حكاما كما يبدو فى تعاليم أمنمحات الأول الذى يرى ضرورة "السعى  
المتبادل " وأن يفكر المرء فى الآخرين ، ومحكومين كما يبدو فى  
شكاوى القروى الفصيح لذى يقول " اسع من أجل من سعى لأجلك " -

كان المجتمع المصرى يؤمن بضرورة السعى المتبادل . وهذا السعى المتبادل ليس إلا " الماعت " وقد ورد فى تعريف " الماعت " نص يرجع - فيما يقول آسمان - إلى عصر الملك نفرحنب من الأسرة الثالثة عشرة . يقول النص " المكافأة لمن يسعى هى أننا نسعى من أجله . هذه هى الماعت فى قلب الإله (أى طبفا لرأى الإله) (١١٦) .

إن الماعت إذن هى نتاج السعى المتبادل الذى يربط بين الأمس والغد وبتجاوز الحاضر ويضمن الثقة والنجاح لأن الماعت لم تتواجد تلقائيا ولكنها وظيفة من وظائف الذاكرة الاجتماعية .

أما العنصر الثانى من العناصر الثلاثة المضادة للماعت فهو عنصر "فقدان الحس" وهو المتمثل فى عدم الإنصات للماعت . وحسب رؤية آسمان ، فمثلا كانت البلادة مفايلة للسعى ، فالصمم هنا مقابل للسمع أى اللغة ؛ فعلى حين يربط الجزء الأول من مقولة الفروى بين السعى والأمس أى البعد الزمنى ، فإن الجزء الثانى يربط بين اللغة والصداقة أى البعد الاجتماعى حيث يبتعد البليد عن الأمس مثلا يبتعد الأصم عن الآخرين . كلاهما يقطعان صلة التضامن مع الآخرين ؛ يقطع البليد تواصل السعى بينما يقطع الأصم

تواصل الاتصال وينقلنا من مجال الفعل إلى مجال اللغة ؛ فإن ما كان " مكافأة " فى مجال " الفعل " يصبح اتصال وود متبادل فى مجال الحديث . ومن الواضح أن الفعل واللغة هما مفومات الماعت الرئيسية ويقابلان - فيما يفول آسمان - " البر " و " الصدق " ، البر هو الماعت التى نفعها حينما نسعى ، أما الصدق فهو الماعت التى نقلها حينما نتصل بالآخرين (١١٧) .

ولقد أفاض آسمان فى بيان كيف أن الاستماع والصمت كفضيلة من الفضائل الهامة فى التراث المصرى القديم لم تكن غاية فى ذاتها بل كانت وسيلة لفضيلة أهم وأسمى هى فضيلة حب الآخرين ؛ فالإخلاص فى الاستماع إلى ما يقولونه يعنى حتما أننا سنقول وسنتصل بهم عبر فهم جيد لما قالوا . إن هناك ارتباطا ضروريا فى الفكر المصرى القديم بين " الماعت " التى " نفال " و " الماعت " التى " تفعل " إنها الماعت الاتصالية القابلة للتبادل على حد تعبير آسمان (١١٨) ، إن " الماعت " هى الحديث الذى يؤدى إلى التضامن الذى بواسطته نندمج مع الآخرين . والحديث الذى يؤدى إلى التضامن هو الحديث الذى بواسطته نحيا وهذا الحديث (أو

الخطاب) لا يظهر بهذا الشكل التضامنى - الاجتماعى إلا حينما نحسن الاستماع والإنصات . وفى هذا الإطار لأهمية " القول " و " الفعل " المطابق للقول يجب أن نفهم خطاب الشكوى لدى القروى الفصيح فهو لا يقول لمجرد القول . بل كان يبيث شكواه مفترضا أنها ستجد الأذان الصاغية التى تحسن الاستماع ، وستجد العقل الذى يقدر المعنى الذى تبثه الكلمات فيأمر بتحقيق العدالة وإعطاء الحق لصاحبه ومعاقبة المسىء .

والجدير بالانتباه هنا أن نلاحظ أن ذلك قد حدث فى قصة القروى الفصيح حيث إن تظاهر رنسى بن مـيروو بالبلادة وعدم الإنصات كان تنفيذاً لأمر ملكى . لكن الواقع أنه أحسن الاستماع إلى هذه الشكاوى من بدايتها إلى نهايتها ونقلها للملك وأمر برد الظلم عن القروى وجرد الظالم من كل ثروته وأملاكه هو ورجاله الذين اشتركوا معه فى جريمته ضد القروى (١١٩) .

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى تحليل إسمان للنص السابق ، سنجد أن العنصر الثالث المضاد للماعت هو " الجشع " والجشع عند المصريين صفة متصلة بالقلب حيث إن التعبير المصرى عون - إب

مكون من كلمة " جشع " و " قلب " ويعنى حرفيا فيما يقول آسمان " جشع القلب " (١٢٠) ولذلك فإنه إذا كنا قد تناولنا السعى والكلام والاستماع كوسائل يتصل بها الفرد مع الآخرين ويندمج معهم ، فإن "الجشع" هنا وسيلة ينكفى بها الفرد على نفسه ، فلا يعد بإمكانه أن يحتفل لأن الاحتفال معناه الإنفاق والاتصال بالآخرين الذين سيشاركونه الاحتفال .

وقد دلل آسمان على ارتباط الجشع عند المصريين بالأنانية ورفض الاندماج الاجتماعى ، وعلى التقابل لديهم بين الجشع والماعت بنص للمفكر المصرى العظيم بتاح حوتب قال فيه " إذا أردت أن يمتاز سلوكك ، فابتعد عن الشر أيا كان ، احذر من الجشع لأنه مرض خطير ومستعصى ولا يجعل مكانا للألفة . إنه يحط من شأن الآباء والأمهات والأخوة من أم واحدة . ويعطى مرارة لحلاوة الصداقة ، ويبعد السيد عن صديقه ، ويفرق بين الزوج وزوجته ، إنه خلاصة كل ما هو سيئ ويحيط بكل ما يدعو للتأنيب . أما من يتكيف مع الماعت فإنه يدوم وينطلق طبقا لخطواتها . وبفضل ذلك يترك وصية . أما الجشع فلا قبر له " (١٢١) .

ولا شك أننا بعد أن نقرأ هذا النص وغيره من النصوص المصرية القديمة خاصة مفولة القروى الفصيح " لا أعباد للجشع " ، ندرك أن قوام السعادة عند الإنسان المصرى يكون فى الاتصال بالآخرين والاندماج معهم على أساس من "الماعت" . ولا مكان لأنانى لا يستمع إلى الآخرين ولا يفعل ما اتفق عليه بين الجميع داخل هذا المجتمع . ومن ثم فلا يمكن أن يشعر بالسعادة أو يحتفل بعيد ذلك الإنسان الذى رضى بعزلته فتمزقت نفسه بانكفائها على ذاتها ، ولم تعد قادرة على أن تحبا حياة السعادة التى فوامها " الماعت " الذى يظل حياة الجميع حكاما ومحكومين .

وعلى أى حال ، فقد ركز خطاب الشكوى للقروى الفصيح على بيان الجوانب السلبية لعدم تطبيق العدالة ، وبالطبع فإن المعرفة النظرية بهذه الجوانب السلبية يعقبه محاولة تلافى هذه الجوانب من قبل المسئولين . وتلافى هذه الجوانب السلبية يعنى تلقائيا تحقق العدالة فى صورتها المثالية التى يستهدفها خطاب الشاكى . وإذا ما حدث ذلك - كما حدث بالفعل - فقد حدث التلقى والاتصال بين الشعب والحاكم فى الأمانى (المعبر عنها فى الأقوال) وفى الأفعال . وهذا النساق بين القول والفعل هو جوهر نظرية " الماعت " فى مصر القديمة .